إِفْتَحِ الْجَفْنَ وَاتْرُكِ الْقَوْلَ فِي النَّوْ
مِ وَمَيِّزْ خِطَابَ سَيْفِ الأَنَامِ[١]
أَلَّذِي لَيْسَ عَنْهُ مُغْنٍ وَلَا مِنْـ
ـهُ بَدِيلٌ وَلَا لِمَا رَامَ حَامِ[٢]
كُلُّ آبَائِهِ كِرَامُ بَنِي الدُّنْـ
ـيَا وَلَكِنَّهُ كَرِيمُ الْكِرَامِ[٣]

إذا سلمت سلم الناس

قال وقد عوفي سيف الدولة مما كان به:

[البسيط]

أَلْمَجْدُ عَوفِيَ إِذْ عُوفِيتَ وَالْكَرَمُ
وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ الأَلَمُ[٤]
صَحَّتْ بِصِحَّتِكَ الْغَارَاتُ وَابْتَهَجَتْ
بِهَا الْمَكَارِمُ وَانْهَلَّتْ بِهَا الدِّيَمُ[٥]

= كيف استطاع النوم وهو على هذه الحالة من البؤس وكيف استطاع الفقر أن ينام إلى جانبه.

(١) الأنام: الخلق. ينعى الشاعر على هذا المسكين عدم معرفته بسيف الدولة، إنه الأمير، فلا يمكن أن يُخاطب مخاطبة سائر العامة، فلا بدّ للمادح من الارتفاع إلى مستوى ممدوحه ليكون الشاعر قاصداً مدحه بما يليق به ويستحقّه.

(٢) يمدح المتنبي سيف الدولة، وهو ينبّه ذلك المسكين إلى ما يجب في حق الأمير، إنه واحد بذاته لا يمكن أن يحلّ غيره محلّه ولا يقوم مقامه، يعمّ فضله البشر، وهو عظيم القدر، وبإمكانه أن يفعل ما يشاء، بيده قدرة نافذة مع أقرانه من الملوك والأمراء.

(٣) يلتفت الشاعر إلى أجداد الأمير، إنهم كرام توارثوا النبل والسيادة أجيالاً متلاحقة، فكانوا أكرم البشر، والأمير أكرم آل بيته، فهو أكرم أهل زمانه.

(٤) و (٥) ورد البيتان الأولان في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. يُخاطب الشاعر الأمير بفرح، فقد عادت إليه العافية، فإذا بالمجد يستردّ قُواه، فالمجد يستمدّ وجوده من وجود الأمير، حتى الكرم يعود إليه بهاؤه بعودة صحة الأمير؛ وهذا ما يجعل =

وَرَاجَعَ الشَّمْسَ نُورٌ كَانَ فَارَقَهَا
كَأَنَّمَا فَقْدُهُ فِي جِسْمِهَا سَقَمُ[١]
وَلَاحَ بَرْقُكَ لِي مِنْ عَارِضَيْ مَلِكٍ
مَا يَسْقَطُ الْغَيْثُ إِلّا حَيْثُ يَبْتَسِمُ[٢]
يُسْمَى الْحُسَامَ وَلَيْسَتْ مِنْ مُشَابَهَةٍ
وَكَيْفَ يَشْتَبِهُ الْمَخْدُومُ وَالْخَدَمُ[٣]
تَفَرَّدَ الْعُرْبُ فِي الدُّنْيَا بِمَحْتِدِهِ
وَشَارَكَ الْعُرْبَ فِي إِحْسَانِهِ الْعَجَمُ[٤]

= أعداء الأمير في غيظ بعدما هلّلوا وانشرحت صدورهم بمرضه، فإذا بهم ينتظرون مباغتته لهم بالغارات، فيعمّ ديارهم الدمار والموت والخراب، وفي المقابل ذلك دبّت الحياة في أوصال المكارم في الكون فإذا بالأمطار تنهال مبشّرة بانتصارات على الروم وبعودة أمل متجدّد مع استرجاع الأمير عافيته.

(١) ثمّة رباط بين الشمس وما تمثل من دفء ونور وعطاء، فإذا بها تبدو كليلة، فلم تُشارك الناس ما هم فيه، فإذا بهم يتأثرون بما حدث للأمير وانعكس على إحساسهم بالشمس وما تحمل، حتى استردّ الأمير عافيته، فإذا بالشمس تعود إلى بهجتها، فانعكس ذلك على مواطنيه، فإذا الفرحة تغمر النفوس والقلوب.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. العارضان: صفحتا الوجه. الغيث: المطر. لقد أطلّ الأمير بوجهه الباسم، فإذا بالشاعر يُحسّ بأن الحياة دبّت في الكون من جديد، واستبشر خيراً بأن جوده سيتدفّق وكأنه غيث تلوح في الأفق بوادره.

(٣) إن تشابه الأسماء لا يعني تشابه الصفات؛ فالأمير سمي سيفاً، إنه من لحم ودم، وشيمته تجعله من أفضل بني البشر في عصره كرماً وشجاعة وعلماً وخلقاً وأخلاقاً، بينما تشكّل السيف الحديدي بإرادة الإنسان ولا يقوم بذاته خلاف الإنسان، فالإنسان يستعمله، فهو يستمد فاعليته بقوّة عضد الإنسان وجبروته، ولولا ذلك لارتمى أيضاً كسائر ما يستخرج من الأرض من مواد يستعين بها الإنسان على الحياة، لذا فلا سبيل للمشابهة بينهما.

(٤) المحتد: الأصل. يمدح الشاعر الأمير بعروبته وبذلك يفتخرون لما يمثّل بالنسبة إليهم من استمرار المنعة والتفوّق والكرم الذي يتقاسم رفده العرب والعجم سواء بسواء.

وَأَخْلَصَ اللَّهُ لِلإِسْلَامِ نُصْرَتَهُ
وَإِنْ تَقَلَّبَ فِي آلَائِهِ الأُمَمُ[١]
وَمَا أَخُصُّكَ فِي بُرْءٍ بِتَهْنِئَةٍ
إِذَا سَلِمْتَ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا[٢]

على قدر أهل العزم..

يمدحه ويذكر بناءه ثغر الحدث سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة(٩٥٤م):

[الطويل]

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ[٣]
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا
وتَصْغُرُ فِي عينِ الْعَظِيمِ الْعَظَائِمُ[٤]

---

(١) الآلاء: النعم والخيرات. لقد جعل اللّه عز وجل نصر الإسلام على يديه لإعزاز دينه ورفعة المسلمين، والجانب الآخر مما امتاز به الأمير كثرة عطاياه، فكرمه شمل سائر أمم الأرض، فهو يوزّع من فضل اللّه تعالى بلا حساب.

(٢) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١١٣. إن تهنئة الأمير بالسلامة لا تتوقّف عليه دون سِواه، بل إن التهنئة تشمل سائر الناس، فبسلامته يسلم الجميع من كلّ الآفات والمصائب، لأنه المعوّل عليه في حمايتهم وانتصارهم على عدوّهم اللدود من الروم وسواهم.

(٣) ورد البيت في: الوساطة بين المتنبي وخصومه: ١٥٨. العزم: القوّة والإرادة. العزائم، الواحدة عزيمة: القدرة. الكرام، الواحد كريم: الجواد. المكارم، الواحدة مكرمة: الفضائل. يبدأ الشاعر قصيدته المدحية ببيت حكمي جميل، فالأفعال العظيمة منوطة بأصحابها؛ فأولو القوّة لا يأتون إلّا بما يدلّ على عظمتهم من جليل الأعمال وعظيم الأفعال، وهؤلاء من نسيج خاصّ نسجتهم يد القدرة وغمستهم في بحر الوجود الطامي بعظيم الأحداث، وهم بطبيعتهم كرماء جُبلوا من عجينة العظمة والكرم؛ إنهم مؤهّلون لكلّ مكرمة.

(٤) يُردف الشاعر منوّهاً بعظمة سيف الدولة؛ فالصغار أعمالهم تدلّ عليهم، يمتازون بقصر النظر وفتور الهمّة بحيث لا يرون حتى في أصغر الأعمال إلاّ الرعب والهول =